المدرس وأسئلة المهنة

عبد الله زروال

«المدرس هو شخص يعمل في قسم (أو مع جماعة) داخل مدرسة (بصفة عامة) تنتمي إلى مؤسسة، وهو كذلك مواطن. فالمدرس شخص له أبعاده السيكولوجية المكونة لشخصيته، والمدرس شخص داخل القسم لأنه يقوم بمهام كالتدريس والتدريب والإرشاد والتنظيم، والمدرس فرد داخل فريق لأنه يساهم في عمل الجماعة وينشط البحث التربوي والتجديد، والمدرس أخيرا فرد من هيئة التعليم لأنه ينتمي إلى مهنة دورها تربية المواطن ونشر الثقافة.»

تقديم:

يظل المتعلم محور العملية التعليمية التعلمية ومدارها، فهو منطلقها الأول وغايتها القصوى، وهذه حقيقة تربوية باتت مسلمة لا تقبل المراء، ولذلك كان لزاما أن يستأثر المتعلم باهتمام مختلف الفاعلين في المنظومة التربوية، ويستحوذ على انشغالات الدارسين والباحثين في حقل التربية والتكوين.

بيد أن هذه الحقيقة الثابتة لا تعفي، بأي حال من الأحوال، من الالتفات إلى المدرس بما هو قطب في هذه العملية لا يمكن الاستغناء عنه، وضلع من أضلاع المثلث الديداكتيكي المتساوية؛ أي المتعلم والمدرس والمادة، على أن هذا الالتفات لا يعني، إطلاقا، ارتدادا أو حنينا إلى البيداغوجيات التقليدية التي كانت تعتبر المدرس سيد الموقف التعليمي، ومالك المعرفة، وناقلها، لا ينازعه في ذلك منازع؛ إنما المقصد هو إلقاء بعض الأضواء على مهنة المدرس، ومتطلباتها، وإكراهاتها.

- **من هو المدرس؟**

لا شك أن الجواب الجاهز والمتوقع، في غالب الأحيان، عند طرح هذا السؤال هو:

المدرس هو ذلك الشخص الذي يزاول مهنة التدريس، باعتبارها مهنة تخضع، كسائر المهن، للمقتضيات والضوابط المتواضع عليها بين المهني والجهة التي تشغله. ولأن السياق هنا يتطلب مزيدا من التدقيق الاصطلاحي، فمن المفيد إيراد تعريف Mialaret:

«المدرس هو شخص يعمل في قسم (أو مع جماعة) داخل مدرسة (بصفة عامة) تنتمي إلى مؤسسة، وهو كذلك مواطن. فالمدرس شخص له أبعاده السيكولوجية المكونة لشخصيته، والمدرس شخص داخل القسم لأنه يقوم بمهام كالتدريس والتدريب والإرشاد والتنظيم، والمدرس فرد داخل فريق لأنه يساهم في عمل الجماعة وينشط البحث التربوي والتجديد، والمدرس أخيرا فرد من هيئة التعليم لأنه ينتمي إلى مهنة دورها تربية المواطن ونشر الثقافة.» [1]

ويبدو جليا عند تفكيك هذا التعريف أن ميالاري يركز على العناصر المحورية التالية:

- هوية المدرس: يعتبره فردا وشخصا ومواطنا، ينتمي إلى مجموعة وفريق وهيئة.

- فضاء اشتغاله: يحصره في القسم والمدرسة.

- مهامه وأدواره: يحمل المدرس جملة من المسؤوليات، ويلقي على عاتقه عددا لا يستهان به من الأعباء، وهي التدريس، والتدريب، والإرشاد، والتنظيم، وتنشيط البحث التربوي، والتجديد، وتربية المواطن، ونشر الثقافة.

ومن الملاحظات الأولية التي يمكن إبداؤها في شأن هذه العناصر:

- اعتبار المدرس شخصا يعني، طبعا، أنه ذات بأبعاد مركبة، واعتباره مواطنا يعني أن له حقوقا، وعليه واجبات.

- فضاء عمل المدرس فضاء ممتد، ذلك أن التخطيط والإعداد والتصحيح أشغال من المفترض أن تتم خارج أسوار الفصل والمدرسة.

- مهام المدرس والأدوار المنوطة به عديدة ومتشعبة، إلا أن هذا لا يمنع من اختزالها في دور جامع يجملها كلها هو التعليم.

إن الجواب عن سؤال: من هو المدرس؟ هو في حقيقة الأمر تحديد لهويته المهنية؛ وإذا كانت هذه الهوية في الظاهر تلوح واضحة المعالم، ولا تثير الأسئلة، فإنها في نظر بعض الباحثين في حقل التربية، هوية يشوبها بعض الغموض، ويكتنفها شيء من التناقض، ويظهر ذلك بجلاء عندما يقارنونها بمهن أخرى من قبيل مهنتي الطب والمحاماة. ويعزى ذلك إلى محددات مختلفة تتحكم في هذه الهوية من قبيل اختيار مهنة التدريس، والميل إلى مزاولتها، وإدراك المدرس لها، والتمثلات الذائعة عنها.

• المدرس من ناقل للمعرفة إلى تقني في التعلم:

«المدرس ناقل للمعرفة» تعني هذه المقولة أن المدرس فاعل وكده الأساس هو نثر محتويات مادة تخصصه بين يدي المتعلم، فيما يظل هذا الأخير قابعا في مكانه سلبيا يستقبل المعلومات، ويخزنها في الصدر وفي السطر، دون أن يعي أبعادها، أو يدرك نفعها الآني؛ كل ما يعرفه هو أنه سيستدعيها، كما هي، بلا زيادة ولا نقصان، عندما يطالب بذلك في العاجل أو في الآجل، وأن ذاكرته قد تسعفه فينال الرضا والثواب، وقد تخونه، فيلقى السخط والعقاب.

ومن المعلوم أن هذا النموذج هيمن طويلا على الممارسة التعليمية؛ وقد تحول، في ظل سيادته، المتعلم إلى رأس فارغة، أو وعاء يخضع بالتناوب إلى عمليتين متلازمتين هما: الملء والإفراغ، وصار كائنا مذعنا، سهل الانقياد، لا يبني فكرا، ولا يصدر حكما، ولا يجرؤ على نقد، ولا يبادر إلى إبداع.

لكن البيداغوجيات الحديثة انبرت لهذا النموذج بالذم والنقد، فراحت تكشف نقائصه، وتبدي عيوبه ومثالبه، وتنادي بنموذج ديداكتيكي شديد الفعالية يجعل من المتعلم عنصرا نشيطا، وفاعلا إيجابيا يتفاعل ويشارك ويبحث ويكتشف ويبدع، ليرتقي مدارج التعلم بثقة وثبات إلى أن يبلغ ما يتطلع إليه من أهداف بنجاح. ومن هذه البيداغوجيات، طبعا، بيداغوجيا المشروع. يقول صاحبا كتاب «من أجل بيداغوجيا المشروع» في سياق الحديث عن المشروع ومهنة التدريس: «وهذا يفرض على المدرسين ألا يعتبروا تلاميذهم مجرد مستقبلين، وإنما عليهم اعتبارهم فاعلين أيضا، حتى لا يكونوا هم كذلك مجرد مالكين للمعرفة» [2]

لقد صرفت الاتجاهات التربوية الحديثة العناية من المدرس والمادة إلى المتعلم، واعتبرته مركز الاهتمامات كلها، وبذلك أحدثت تغييرا عميقا في مفهوم التعليم، إذ لم يعد نقلا للمعرفة العالمة، وإنما هو، على حد تعبير عالم النفس الأمريكي Gagné: "تنظيم وضعيات التعلم التي ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار الأبعاد الوجدانية، والاجتماعية، والبيداغوجية، والنفسية، والديداكتيكية"[3].

وعليه، فإن المدرس غدا فنيا وتقنيا شغله الشاغل هو تنظيم سياق التعلم الوظيفي، والسهر على توفير الشروط المساعدة على حيازة المعرفة المدرسية.

• المدرس بين متطلبات المهنة وإكراهاتها:

لا ريب في أن الانتقال من ضفة التعليم إلى ضفة التعلم، وتحول المدرس من موصل معرفة إلى فني متخصص في التعلم، جعلاه أمام مطالب تقنية عديدة، ومن أهم هذه المطالب:

- حصر حاجيات المتعلمين الحقيقية قبل التعلم، وربطها بالتعلمات المنتظرة.

- اقتراح وضعيات تستهدف بالأساس انخراط المتعلم في مسلسل التعلم.

- الحرص على أن تكون هذه الوضعيات متسمة بالمرونة والتنوع والشمولية، ويراعى فيها طبيعة المجموعة المتعلمة غير المتجانسة، وتباينها الشديد في الانتماء السوسيوثقافي، والاستعداد، والدافع، والوتيرة، وصنف الذكاء...الخ

- تنويع تقنيات التنشيط ووسائل التعلم درءا للسآمة من جهة، فقد قيل: "لقد ولد السأم يوما من الرتابة"، واستجابة لمنوال التعلم من جهة ثانية؛ لأن المتعلمين لا يتعلمون بكيفية واحدة.

- التدخل للتعديل والتصويب كلما دعت الضرورة إلى ذلك، نظرا لما قد يطرأ على وضعيات التعلم من متغيرات مفاجئة لا تكون في الحسبان.

- توجيه المتعلمين إلى مصادر المعرفة المختلفة.

- تدريب المتعلمين على كيفية التعلم، وحفزهم على الاستقلال بذواتهم، ليتعلموا من تلقاء أنفسهم.

-ضبط آليات تقويم التعلمات المستهدفة، من مواقيت وأساليب ومؤشرات، وما إلى ذلك من عناصر عدة التقويم.

من الواضح أن الإحاطة بهذه الإجراءات كلها، ليس بالأمر الهين الميسور، لاسيما وأن تنظيم وضعيات التعلم لا يتم دائما في ظروف نموذجية تتوفر لها جميع أسباب النجاح، حيث إن المدرس يواجه، كأي مهني إكراهات، ومنها الإكراهات الداخلية، ونعني بها تلك التي ترتبط أساسا بالعناصر المحيطة بتدبير فعل التعلم.

ومن أبرز الإكراهات التي قد يصطدم بها المدرس: رداءة فضاءات الحياة المدرسية، وافتقارها إلى المواصفات المتعارف عليها، والتجهيزات الضرورية، والوسائل المساعدة، وسيادة مناخ مدرسي مضطرب ومشحون داخل المؤسسة التعليمية، تغلب عليه أجواء التوتر والتفكك، إن لم نقل الفوضى، وازدحام الفصول بالتلاميذ، وفتور الدافع إلى التعلم، وتفشي سلوكات سلبية مثل نزعة التغيب المدرسي، والجنوح إلى التعاسر، والشغب، والعنف، والغش، وما إلى ذلك من مظاهر الانحراف المتنامية في الوسط المدرسي.

نعم المدرس يواجه إكراهات حقيقية، لذا لا غرابة في أنه يحاول، وفي المحاولة الخطأ وارد. المدرس يخطئ لسبب معقول هو أنه ليس منزها عن الخطأ. يقول الدكتور عبد الرحيم تمحري مؤكدا هذه الحقيقة: "فأن لا يخطئ المدرس يعني أنه لا يوجد، ولا يحيا، ولا يتحرك، ولا يحاول، الشيء الذي يتنافى مع المهمة الحقيقية للمدرس

كمرب، وهي الاعتراف، منذ البداية بأنه لا يمتلك وحده كل الحقيقة، وأن عليه أن يدفع بتلاميذه إلى البحث دائما بدل أن يركنوا إلى الراحة والهدوء"[4]

ومختصر القول هنا إن المدرس يفترض فيه أن يكون خبيرا ملما بأسرار التعلم، لكن هذا لا يعني أنه سيجد كل الطرق سالكة ومعبدة. حتما سيكون عرضة للخطأ والصراع والتردد واللاتوافق، لكنه مع ذلك ينخرط بدينامية، وينجز بفعالية، ويحمل تلاميذه باستمرار على المضي قدما في درب البحث.

- **المدرس موضوع للتصنيف:**

انشغل بعض الباحثين بتصنيف المدرسين، وضبط نماذجهم، ولأن الوقفة هنا محدودة سنكتفي بإشارتين:

الأولى: في الثلاثينات من القرن الماضي شاع منظور «المدرس الناجح»، حيث توصل والكر Walker إلى ست خصائص تميز المدرس الفعال أو الناجح، وهي: التعقل في الحكم، وضبط النفس، والحماس، والجاذبية، والتكيف والمرونة، وبعد النظر؛ والملاحظ أن هذا النموذج الذي يوحي ضمنيا بنقيضه، أي المدرس الفاشل، ما زال متداولا وجاريا على الألسنة؛ وهذا ما بعث محمد الدريج على الاستغراب: "ولكن ما يثير استغرابنا هو أننا ما زلنا نلاحظ لجوء بعض الأساتذة والباحثين في المغرب وغيره من البلاد العربية، على إنجاز أبحاث تتناول قضايا هذا المنظور والذي اختفى كلية من حقل المعرفة البيداغوجية في الدول الأخرى فيتساءلون مثلا في أبحاثهم عن من هو المدرس الناجح؟ أو ما رأي التلاميذ في الأستاذ الناجح؟ أو ما هي صفات الأستاذ الكفء؟"[5]

الثانية: صنف دانييل غاييت Daniel Gayet المدرس بناء على علاقته بتلاميذه إلى تسعة أنواع، وهي: المدرس المرعب، المدرس الصارم لكن العادل، المدرس الديماغوجي أو الصديق، المدرس الحالم، المدرس المتحمس، المدرس المهرج، المدرس القلق، المدرس الأمومي، المدرس المقاوم للموت. [6]

وفي واقع ممارستنا التربوية، كثيرا ما نسمع نعوتا متعددة تطلق على المدرس، وتنطلق من معايير وخلفيات مختلفة، ومن ذلك: مدرس كفء، مدرس مجدد، مدرس تقليدي، مدرس ملتزم، مدرس مستهتر، مدرس صعب، وهلم جرا من النعوت. وارتباطا بصلب هذا الموضوع، وما ينطق به واقع الحال، يمكن، في نظرنا، الحديث عن ثلاثة أصناف:

- المدرس المجتهد: ينشغل أساسا بما يحرزه المتعلم من تقدم في بناء تعلماته، فيجتهد في اقتراح الوضعيات الباعثة على التعلم، ويعنى بتيسير الأعمال، وتذليل الصعوبات، والحفز على تحرير طاقات

المتعلمين، وحفزهم على الانطلاق في عالم التعلم المديد والرحب، لا ينزعج للخطأ؛ لأنه يعتبر أن له وظيفة بيداغوجية، ويتعامل معه بما هو لحظة أساسية في البناء العلمي للمعرفة كما يقول غاستون باشلار، ولا يستسلم للإكراهات، بل يعدها تحديا من تحديات المهنة. وبكلمة واحدة يمكن القول إن المدرس المجتهد صاحب مشروع، موضوع مشروعه التعلم، وهدفه الأسمى هو أن ينجح المتعلم في التعلم.

- المدرس المقتصد: يزاول مهنته باقتصاد، فيحرص على تنفيذ المقرر بأقل جهد، وأضعف كلفة، فيدبر وضعيات التعلم، أو ينقل المعرفة، حسب هذا المنطق؛ أي منطق الاقتصاد، وقد لا يلقي البال إلى مدى تعلم المتعلمين، ولذلك تغلب على ممارسته الرتابة والجمود وضعف الفاعلية.

- المدرس المقصر: ويتجلى تقصيره في الميل إلى التأخر، والجنوح إلى الغياب، والإخلال بمسؤولياته، وتتسم عادة ممارسته لمهنته بالاضطراب والتوتر والفتور، فلا تخطيط ولا إعداد ولا رؤية واضحة، فهو يسير بلا غاية، و"من سار بلا غاية توشك أن تنقطع به مطيته"، كما قال عبد الله ابن المقفع.

يعكس هذا التصنيف، في حقيقة الأمر، التفاوت السائد في أداء المدرس المهني. وبصرف النظر عن العوامل الذاتية والموضوعية، والجلية والخفية التي يمكن أن تفسر هذا التفاوت، أو تبرره، فإن ذلك ينعكس على مردوديته، والتي لا تقاس بمعيار نسبة النجاح التي يحرزها التلاميذ ، وإنما تقاس بمعايير عملية متعددة الأبعاد حددها علماء التربية [7].

من المؤكد أن مستوى أداء المدرس ينعكس على مردودية المتعلم، وبالتالي على مردودية المدرسة، بل وأكثر من ذلك على المنظومة التربوية برمتها. وفضلا على المردودية يثير التفاوت في أداء المدرس المهني قضايا كثيرة مما لا يتسع المجال للخوض فيه مثل: المدرس والجزاء، المدرس والحكامة، المدرس والضمير المهني، والمدرس والتوافق، المدرس والاعتبار...الخ

- **المدرس والإرهاق المهني:**

من أسوأ الحالات التي يمكن أن يصل إليها المدرس سقوطه ضحية ما يعرف بالإرهاق المهني، أو ما يصطلح عليه البعض بالاحتراق النفسي، الذي يقابله باللغة الإنجليزية out Burn Psychological، بينما الاستعمال المتداول في اللغة الفرنسية هو psychologique Epuisement. والمصطلح كما يومئ إلى ذلك داله ينتمي إلى حقل علم النفس؛ أما مدلوله فهو الإجهاد الذي يتمكن عادة من العاملين في وظائف إنسانية كالطب والتعليم والعمل الاجتماعي. وارتباطا بهذا المدلول يستعمل البعض مصطلح الإرهاق

المهني. وقد عرفته Maslach Christina الباحثة في علم النفس الاجتماعي كما يلي:

"هو حالة من الإجهاد التي تصيب الفرد نتيجة لأعباء ومتطلبات العمل التي تفوق طاقة الفرد، وما ينتج عنها من الأعراض النفسية والعقلية والجسدية" (8)

ويتضح من خلال هذا التعريف أن الإرهاق المهني حالة غير صحية، لها أعراض تدل عليها، وقد حصرتها "ماسلاش" في ثلاثة، وهي: الإجهاد الانفعالي، ونقص الشعور بالإنجاز، وتبلد الشعور.

فماذا إذن عن المدرس؟ المدرس واحد من الموظفين الذين قد يصابون، خلال مسارهم العملي، بالإرهاق المهني. ومن الأعراض التي تنبئ بهذا الإرهاق إحساس المدرس بالإجهاد الشديد التي يستبد به بعد انصرام مدة ما من مزاولته لمهنة التعليم، حيث يشعر بأنه قد أفرغ جل جهده، واستنفد كل طاقته، ولم يعد يحتفظ ولو بالنزر القليل من النشاط، والقدر الضئيل من العزم والهمة والحماس، فيتضاءل لديه تدريجيا الدافع، ويخونه في أحوال كثيرة التركيز والانتباه، إلى أن يسوء به الحال، فيتسلل إليه العجز والكسل والخمول، ويميل كل الميل إلى التأخر، والغياب، والتقصير في المهام المنوطة به. وغالبا ما يجتاحه، في حالة يقظة الضمير، شعور بعدم الرضا عن عمله، ويلازمه إحساس بأنه أخل بالعقد الإداري والتشريعي المبرم بينه وبين الوزارة الوصية على القطاع، بل والأدهى من ذلك أنه خذل المتعلم الذي يربطه به ميثاق ضمني. وإزاء هذا الوضع لا يملك إلا أن يبحث عن الخلاص من المهنة التي جاءها اختيارا أو سيق إليها اضطرارا.

إن مسببات الإرهاق المهني لدى المدرس لا ترتبط بأحوال شخصيته المختلفة: الجسدية والنفسية والاجتماعية والعقلية والروحية فحسب، وإنما أيضا بعوامل موضوعية، حيث إن الإكراهات الضاغطة التي تقدم ذكرها تسهم بكيفية حاسمة في تفاقم الحالة، وبلوغها مراحل متقدمة قد تنذر بأوخم العواقب. وبسبب غياب الوعي بحقيقة الإرهاق المهني، وأعراضه، وآثاره، في الوسط التربوي، يستمر بعض المدرسين الذين أجهدتهم المهنة حد الاحتراق النفسي في ممارسة مهنتهم مكرهين، فيصبحون أحيانا موضوعا للتفكه والتندر والتهميش.

- **خلاصة:**

المدرس فاعل مؤثر في المنظومة التربوية، ما في ذلك شك، لذلك كان من اللازم أن يحظى هذا الفاعل بالانشغال بدءا من انتقائه لمزاولة مهنة التدريس، هذا الانتقاء الذي لا ينبغي أن يكون بناء على امتلاك المرشح لقاعدة معرفية متينة في مجال تخصصه فقط، كما يجب أن يحاط

بالتتبع المتواصل، ويشمل بالرعاية المتكاملة طيلة مسيرته المهنية، وتوفر له الشروط المعينة على العمل بنجاعة وفعالية.

ونظرا لما أفرزته التحولات الطارئة على مختلف الأصعدة من مفاهيم، وتصورات، وأنماط سلوكية، وعلاقات، وتحديات باتت مهنة المدرس تثير اليوم أسئلة جديدة، والانكباب على هذه الأسئلة من زوايا مختلفة يعتبر بحق مدخلا أساسيا من مداخل الإصلاح الحقيقي لمنظومة التربية والتكوين.

الهوامش:

1 - عبد الكريم غريب، المنهل التربوي، معجم موسوعي في المصطلحات والمفاهيم البيداغوجية والديداكتيكية والسيكولوجية، منشورات عالم التربية، الطبعة الأولى،2006 الجزء الثاني، ص 340

2 -Isabelle Bordallo ، Jean -Paul Ginestet ،Pour une pédagogie du projet، Hachette Education ،p181

3 -Françoise Raynal ،Alain Rieunier، Pédagogie : dictionnaire des concepts clés، p128.

4 - عبد الرحيم تمحري، شخصية المدرس المغربي، الهوية والتوافق، منشورات مجلة علوم التربية، العدد 34، ص.35

5 - الدكتور محمد الدريج، تحليل العملية التعليمية وتكوين المدرسين، أسس ونماذج وتقنيات، منشورات سلسلة المعرفة للجميع، الرباط، 2004، ص. 46

6 - اعتمادا على، العربي اسليماني، التواصل التربوي، مدخل لجودة التربية والتعليم، الطبعة الأولى، 2005، ص.23

7 - مثلا المقاييس التي حددتها الجمعية الأمريكية للبحث التربوي، انظر معجم عبد الكريم غريب، الجزء الثاني، ص. 827

8 - د. أحمد أوزي، المعجم الموسوعي لعلوم التربية، ،2006 ، ص.12